وقدموا الجبل

بقلم: د. سهير القلماوى

وبدا الصبح يتنفس هادئا اثر معركة الشمس مع الظلام . لقد انتصرت الشمس ولكن الانتصار جاء اثر جهاد عنيف لم يحس به كائن من الكائنات الاخرى ان كلا منها مشغول بمعركته عن معركة الشمس مع الظلام .

وفي القرية الوادعة في ريف النوبة حيث عبدت الشمس قبل أن يتطلع اليها انسان في اى مكان . كانت بقايا مساكن سادجة فقيرة مجمعة حول نفسها كأنها بتجمعها تتحدى الصحراء القاسية أو مصيرها المحتوم وعلى بعد بعيد وعلى ضفة النهر الخالد الذى كانت الرحلة اليه أشق اعمال الصباح سارت القافلة الحزينة هادئة وديعة نحو مستقبل مجهول مستقبل البلدة الجديدة . وانعكست صورة القافلة على الافق وأصابع الفجر الوردية مازالت تنطبع هزيلة على سماته . وكان الكون كله تغشاه رغم الضوء الاحمر الوليد سحابة حزن وقور قدسى . وبين الافق والقافلة كانت تتراءى بضع تخيلات مفردة هزيلة كأنها هى كل جهاد الانسان مع هذه الصحراء الجبارة

المنيدة تصح بحلات استنبتها الانسان والماء عليه ضنين. نعم الماء سلاحه الوحيد امام هذه الصحراء.

وكان الغلام الاسمر الذى يقود جمل شيخ القبيلة يغنى غناء عادتنا حبيا وكانما هو يتادب أمام وقار الصحراء وجلال الفجر. انها أغنية رتيبة، بسيطة النغم، تتكرر على نغمها القصير كلمات وكلمات، والنغم يعاد ثم يعاد فى تكرار ورتابة كتكرار الشمس والظلام وتتابع الليل والنهار - انه نبض الحياة كنبض الانسان رتيب رتيب نبض الكائنات الذى لا يحس كنبض الانسان لا يلتفت اليه الا فى أزمات المرض وخوف الموت.

وتوقفت القافلة وتنحنح الشيخ ونزل الراكبون ووقف السائرون وأمهم الشيخ فى الصلاة الشيخ عبد الصمد الوقور وخيمته البيضاء ووجهه الاسمر الغامق هما فى حد ذاتهما ليل ونهار ولكن مايال النهار عند الشيخ عبدالصمد لا يقوى على كسب معركته مع وجهه الاسمر الكالح. انها معركة طويلة.

وعلى هودج عطى بقماش أبيض نظيف كانت أمينة المحدونة يحرسها عشرة من أشداد الرجال. رجال تسامعوا بأمينة المحدونة من بعيد فلقد كان حديثها يتردد بين حين وحين فى ناديهم فى القاهرة حيث كانوا يعملون. لقد جاءوا ليستقلوا أسرهم من القرية القديمة الى البلدة الجديدة منهم من لم ير القرية منذ أعوام ومنهم من كان يحرص على أن يزورها كل عام وكلهم الوفى والعاق قد استقبله الاهل بترحاب شديد. وكلهم أقاموا له الافراح يوم وصل ولكنها كانت أفراح مختصرة قصيرة تشاءاسحابة حزن دفين سيتركون بيوتهم سيتركون مواتاهم هناك على البر الآخر البعيد من النيل سيتركون هواء مشبعا بانفاسهم وترابا يحمل آثار أقدامهم. أقدامهم الصغيرة يوم دبت أول ما دبت على الارض وأقدامهم القوية الفتية وأقدامهم المرتعشة الفانية كلها لاجيال وأجيال تتابع على هذه الارض.

ولم تكن أمينة تعى شيئا. أمينة السمراء الجميلة التى استقبلت الصباح ذات يوم مشئوم زاد فى شؤمه انه أتى بعد موجة فرح عاتية. فلقد ظلت أمينة تعمل فى الحوض والصوف تنسج لبسطاويسى ابن عمها ثيابا وتعمل

لنفسها ثوبا وتزين جدار غرفة صغيرة . وعلى الجدار كانت أطباق او حلقات كبيرة زاهية الالوان منسوجة بيد الجميلة أمينة . ولما جاء ابن العم وسلم اباها مهرها وعمت القرية أفراح راح سطاويسى يطلب بركات الشيخ عبد الصمد . وتمتم الشيخ وبصق فى الارض وحوقل فى الفضاء وتطلع الى السماء . « مشئومة يا بنى مشئومة . بيتك وبيها حجاب انزله رب الارباب ليعمى زين الشباب عن شر الاحباب مشئومة مشئومة » . وعاد الشاب وقد انقشعت الآمال واسلمت سماءها الى شمس محرقة تحرق القلب والفكر والجسد . وتلقت أمينة الخبر أول الامر داهلة ثم ولولت وبكت ثم ضربها الوالد الشيخ بعصا خشبية غليظة كان يتوكأ عليها حتى أنقذها منه الاهل والناس . وعاد سطاويسى الى القاهرة ولم ير فى القرية وأدرج فى سجل العاقين .

ومر عام وعام وجاء ادريس ليخطب أمينة بعد أن رفضت السمار وأهلها باسم عمها وتكررت المأساة ان الشيخ عبد الصمد صرخ « أنها مشئومة يا بنى مشئومة » وفى المرة الثالثة ظهرت أعراض الجنون وسميت أمينة بالمجنونة . أمينة الشابة الجميلة التى كان يتمنى كل شاب من القرية أن يظفر بها لجمالها ومهارتها ودأبها على العمل لادبها وعفتها ولمراياها التى كانت على كل لسان ، محرمة مشئومة . لماذا . لا يدرى أحد . ان الشيخ عبد الصمد لا ينطق الا بكلمات حسام كلمات ترح القرية وتقرر مصيرها .

ولما عرفت القرية بأمر الهجرة جاءت الى الشيخ عبد الصمد تستفتيه فضائع أول الامر . وفرح القوم وقالوا مسموت فى القرية ولن ننتقل منها . وتسامع الناس بقوم ياتون الى الشيخ عبد الصمد من اسوان يتحدثون اليه ويحتلون به . ولكن القرية كانت واثقة من الشيخ عبد الصمد . الم يقف يوما فى جماعتهم ليقيس عليهم كيف حاول ادريس أن يرشوه بعشرة جنيهات والله يا أولادى عشرة جنيهات وماذا لو تزوج ادريس بامينة ولكن الشيخ أمين انه يرفض الرشوة فى سبيل أن يقول الحق والحق أن أمينة مشئومة .

وفى صباح يوم لم يعرف أهل القرية ماذا حدث لبثها والشيخ عبد الصمد فى خلوته يقرأ الادعية وعدة الاحجبة عن يمين والدواة والقرطاس عن شمال . قال لعد

رايت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام » . وصلى الناس وسلموا على سيد المرسلين . « انه يأمرنا جميعا بأن نذهب الى البلدة الجديدة . انها مشئومة ولكن هذا هو مصيركم فقد نصلى هناك فيغفر لنا رب السماوات والارض . ان في غرق القرية التي عاشت آلاف الاعوام غطشي لحكمة لا يعلم سرها الا رب السماوات » .

وصلى القوم وبعد اسابيع بدات الرحلة . وصارت القافلة تودع الشمس كل مساء وتستقبلها كل صباح . رحلة طويلة حزينة على راسها عبد الصمد واحمد حزينا وفي ذيلها امينة محذوبة لا تعي شيئا . وكان أحمد وعبد العزيز شابين وقال احمد انا اكره الشيخ وقال عبد العزيز اخفض صوتك واستغفر ربك . انه ولي من أولياء الله . الم يتنبأ بشؤم امينة تعسة بسطاوسي وادريس او عمر اذا ما تزوج بالمحذوبة . وقال أحمد « نعم » . ثم قال « ولكن امينة لم تكن هكذا يوم خطبها الخطاب » . وقال عبد العزيز « لقد عرف الشيخ الغيب انه امين اتذكر رشوة الخمسينات العشرة » . وقال احمد « لا ادري أنا لا اطمئن اليه ولا ادري ايضا لماذا أحب امينة بل لا ادري لماذا أنا فرح بالبلدة الجديدة » .

واستقرت القرية في البلد الجديد . مضت ايام في قلق واضطراب وحركات كبار . موظفون ومشرفون ووجوه باسمة تلقاهم وكلمات جميلة يستمعون اليها وبشائر مستقبل قريب تلوح هناك في أفق لا يرونه . وبدت الجدران اول الامر صماء قاسية حانقة وقليلا قليلا رأيتها اطباق الخوص وعقود الخرز والقناديل الزاهية الالوان . واحدث الحياة تنتظم وتنظم وتعود القوم أن يدهبوا في مشاكلهم الى بعض رجال يسكنون بيتا وسط البلدة يقدمون لهم غداء وعشاء ويدورا يبذرون بها الارض . وجاء وجه ذات يوم وجه فتاة تلبس ثوبا أبيض فتاة بيضاء سمحة تحنو على الاطفال تغسل عيونهم وتشفي أمراضهم وصادقها الامهات . ورجال البذر والست عصبة المرضة يملأون فراغ الشكوى فنقل دعاءهم الى الشيخ عبد الصمد وفجأة في يوم جمعة أعلن الناس أن الشيخ عبد الصمد قد مر في ظلام الليل . قال قوم لقد رفع الى السماء وقال قوم لقد شوهد يعدو في الطريق الى الصحراء وقال رجال البذر مالكم وله وسيعود اذا كان حيا . وفرح احمد واهتلأ

عبد العزيز زهوا وتفاخر بانه هو ايضا لم يكن يحب الشيخ . وبدأ الناس ينظرون الى امينة . وحملت امينة الى الست عفيفة وبعد أن استأذنت الوالد الشيخ رحلت أمينة الى مستشفى العاصمة .

وتحدث الحياة الهادئة لبروة الشيخ عبد الصمد ان البلدة مبروكة انها ليست مشئومة . صحيح أن هناك حنينا قويا نحو القرية الصغيرة هناك، ولكن أبى الحياة هنا منها هناك ثم أليس النيل سيغرقها فكيف اذن يعودون. وبدأت الوان جديدة من الافراح تظهر ان شبان القرية لن يرحل الى العواصم انه سيمكث هنا ليزرع وليعمل في المصنع البعيد هناك ليعود آخر النهار . وعاد الى أهل القرية من الشيوخ شبابهم لما رأوا ابناءهم الى جوارهم . ان الفوعة لوعة فراق الابناء ستغرق هناك .. هناك مع النيل . والبلدة لن تحزن من شبابها لن تحزن من عصب حياتها .

وذات صباح صاح في الناس أحمد الشاب الجميل ان أمينة يا قومي قد عادت لقد شفيت وسأتزوجها . ورجم القوم وصاح شيخ « مشئومة يا ولدي » وقال أحمد سأتزوجها وقال الشيخ عبد الصمد نفسه . وصاح القوم رحمه الله كيف تجرؤ على القول بأن الشيخ عبد الصمد يملك مالا . انه ولي الله وأولياء الله فقراء لانهم أغنياء بايمانهم وقال أحمد نعم مال الشيخ الذي في منكم ذات ليل . الشيخ الذي تركتكم ليعود الى القرية حيث كان قد دفن المال في بيته ولكن عملية اعداد الارض لتستقبل الماء سمعته . وهذه بعض أوراق الشيخ عبد الصمد وهذا هو المبلغ الذي وجد فيها لقد مات الشيخ على مشارف القرية وهو في طريقه الى كبره وحمله نساء السد كما يحملون الصخور والقوه بعيدا في حفرة من تراب . لقد كان هو ايضا حبلا صخريا عاتيا يعوق ماء الحياة ماء الفكر عن عقولكم . لقد هدمنا الجبل وفجرنا النهر لقد هدمنا عبد الصمد وانحنا الحياة لامينة .